كلمة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

١. القرآن العظيم هو الرسالة الالهيّة العظمى الّتي مَنّ بها الربّ الجليل علىٰ الناس وأذِن لهم أن ينظروا فيها ويطهرّوا أرواحهم بزلال مائها الجاري.. ويطيروا بها إلىٰ سماء معرفته.

وهذه هي الرّسالة الجليلة السّماوية التي عُبّر عنها بالبصيرة والهدىٰ والتبيان والنور والشفاء والبرهان والحكمة والذكر والفرقان ونظائر هذه العناوين؛ ليعلم الجميع بأنّهم ليس لهم غير هذا الكتاب المبين للنجاة من أشكال التعلّق والتشبّث بفخاخ الدنيا..

٢. كيف نعرف القرآن؟ علىٰ حدّ تعبير أحد أكبر عارفي القرآن المعاصرين؛ ينبغي أن نرد حياض الكتاب من طرق ثلاث:[١]

أ: الله جلّ جلاله؛ الّذي أرسل هذا السّفر النفيس؛ قال سماحته في ذلك:

«لا يمكن تعريف القرآن اِلّا من صاحب القرآن، فهو الذي يعرّف كتابه لغيره. وإنّ المرجع في أن نعرف موضوعاً ما؛ متشعبٌ ثلاث شعب ولارابع فيها أو لها.. المقام الألوهيّة.. فالله تعالىٰ قد نزّل أحسنَ الحديث.. وهذا هو القرآن بتعريف الله.. فتكون النتيجة: أنّ القرآن مهيمنٌ علىٰ حديث جميع الملائكة المقرّبين.. وكذا هو حديث جميع الأنبياء والمرسلين.. لماذا؟ لقوله المطلق: أحسن الحديث..»

ب: الطريق الثاني؛ الرجوع إلىٰ النبيّ المخاطَب المباشر بالوحي الإلهي.. وقد نزلت هذه الحقيقة الالهيّة الكبرىٰ والسامية علىٰ قلب هذا النبي المقدّس الجليل.. قال – دام ظلّه-:

«المعرّف الثاني؛ الشخص الأوّل في العالم.. وهو النبيّ الخاتم؛ الذي لا يتزلزل قلبه [ولو] تهدّم

---

١. نقل الأقوال المميزة بالفارزة؛ هي تعريب مقاطع من عبارات الفقيه الكبير الشيخ الوحيد الخراساني – دام ظلّه- و من مجالس درسه الأول إلى الرابع في تفسير القرآن سنة ١٤٢٩ قمرية.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-12-19]

العالم.. فإذا ما قرع ناقوس الخطر؛ كان ذلک مدعاة إلىٰ التأكّد من عظيم أهمّيّة الأمر.. ثم مدىٰ أهمّيّة دفع ذلک الخطر.. وهو قد أعلن عن فادح خطر قادم.. إذ قال [صلى الله عليه و آله]: ستكون بعدي فتن في هذه الأمّة.. فقيل: و ما السبيل إلىٰ ذلک؟.. فقال: كتاب الله العزيز..»

ج: الطريق الثالث؛ الرجوع إلىٰ توجيهات و كلمات رجل عظيم، و صفته تصاريح الفريقين أنّه الأكثر إحاطة بالقرآن، كما تشهد بذلک الكتب و الوثائق المدوّنة المتوفّرة:

«لوصيّ النبي الخاتم.. أمير المؤمنين[1] خطبة في نهج البلاغة بصدد تعريف القرآن أورد فيها حوالي (٢٢) عنواناً [منها]: «ثمّ أنزل عليه الكتاب نوراً.. وبحراً لايُدرك». والصيغة هنا صيغة مجهول في موضوع البحر.. وإنّ وصف القرآن بالبحر ينطوي على بحث مهمّ.. ثمّ النقطة الثانية، كون قعر هذا البحر؛ لايُدرک.. فهو كتاب «فيه تبيان كلّ شيء».. فإذا ما فهمت هذه النقطة، فهمت كلام الأمير الذي هو أمير الكلام... «إنّه لقرآن كريم» و إذ يقول تعالىٰ بأنّ هذا القرآن كتاب كريم، ينبغي أن يفهم ما هو هذا الكرم الذي في قرآن.. «في كتاب مكنون» مستور عن كلّ الخلق، أنّ ما كشف لنا فى هذا الكتاب ليس سوىٰ شعاع؛ أو بَلَلٍ من بحر عميق زخّار... «لا يَمَسُّهُ إلّا المطهّرون» فينبغي التطّهر فى الرجس ثم تمسّ ألفاظه.. غير أنّ مَسَّ المعنىٰ ما هو مبرّره؟ هنالک تتجلّىٰ مراتب الطّهر والتطهّر [وطبقاً للحديث الصحيح على مباني الفريقين] قالت أمّ سلمة: سمعت رسول الله يقول: «عليٌ مع القرآن؛ والقرآن مع علي.. لن يفترقا حتّىٰ يردا عليَّ الحوض...» إنّ ماورد في هذا الحديث النبوي محيّرٌ للعقول.. إذ المعيّة لعناوين الذات إضافة، و ذكر جهة تغني عن الجهة الأخرىٰ.. وفي عنوان ذات الإضافة هذا، كان كافياً أن تدرج تلک الجهة، ولكن في هذا التّصريح النبويّ أدرجت دقائق، حيث عاد النبيّ كرّة أخرىٰ وقال: والقرأن مع عليّ.. فرسم قوله الكريم هذا دائرة قدسيّةً ووضع القرآن في وسطها، وجعل عليّاً محيطاً لهذه الدائرة.. فقال: عليٌّ مَعَ.. ثم ختم بالقول:... مع علي.. فى ما جعل القرآن وسطاً في هذه الدائرة.. و إذا كان الأمر – كما وصف القرآن بأن «له ظهر و بطن» و بأن «له تخومٌ وعلىٰ تخومه تخوم» و أنّ في هذه البطون «تبيانُ كلّ شيء» فيا ترىٰ مَن هو الذي مع تمام القرآن وتمام القرآن معه غير عليّ بن أبي طالب؟»

٣. نتجرّد هُنيئةً عمّا كان (ينبغيٰ أن يكون) ونعود إلىٰ (الذي كان)؛ فننظر إلىٰ التاريخ.. نرىٰ كتاباً

١. انظر: نهج‌البلاغة: شرح فيض الإسلام، الخطبة ١٨٩، ص ٦٤١.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-12-19]

سماوياً معزولاً عن مواقفه.. احترموا في الظّاهر الكتاب الصّامت، متجاهلين الكتاب الناطق.. وفي هذا الصّدد. ألقيت جميع التصريحات والتأكيدات للرّسول الأمين - و هو الذي جاء بالكتاب المبين- في طيّ النسيان. وصار الذي صار..

ولكن ماذا عن مصير القرآن ودوره؟ «كتاب أنزلناه إليک لتُخرّج الناس من الظلمات إلىٰ القرآن» [ابراهيم/١] فإخراج الناس.. يعني كلّ الناس.. (العالم والعامّيّ وفي جميع الأزمنة و الأمكنة) من الظلمات (جميع الظلمات؛ وفي كلّ زمان و مكان.. ولكل الظلمات أشكال خاصة) إلىٰ النور...

ولكن هذا الهدف بخصوص القرآن لم يتحقّق في موارد كثيرة.. ووقع الاختلاف في تفسيره.. وصار «تبيينه» أرضية و مشكلة حتّىٰ تحوّل هذا التبيان المراد إلىٰ «ظلمات» بفعل الذين تناسوا حقيقة القرآن و مرافقِهِ الدائم.. إلىٰ الحدّ الذي لم يرده الآتي بالقرآن أبداً.. و يكنِ التعبير ب «الفتن من بعدي» للإشارة إلىٰ احتلاق هذه الظلمات والفُرقة..

٤. لماذا صار الذي صار؟! قد عدّ الله عزّوجلّ في القرآن العظيم مصدر الاختلاف والفُرقة "بغياً بعد علم"..«فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ» [الجاثية/١٧].

هناک أوجه تفاوت بسيط وجزئي ناشئ عن الجهل.. أما الاختلاف المستديم والعميق فيحصل بعد العلم، فيخطّط له الخائضون فيه بشكل دقيق وواضح، ثم ينهمكون فيه و ينفذّونه.. يؤيّد ذلک التغيّرات الاجتماعيّة والنظر فيها بواقعيّة.. وهذا الأصل كان القرآن الكريم قد بينّه.. فماذا إذن؛ عن زرع الاختلاف المتعمّد؟ الإجابة على هذا السؤال تتطلّب بحثاً ودراسة أخرىٰ، أمّا إذا عدنا إلىٰ بحثنا، وجدنا أنّ البغي (التمرّد والتجاوز علىٰ حقوق الآخرين) في الأمّة أدّي إلىٰ حصول ظلم كبير؛ وهو على شاكلتين: ظلم لكتاب الله تعالىٰ.. وظلم لذلک الرّجل العظيم الذي وصفه خاتم الأنبياء بكونه ملازماً وقريناً للكتاب السماويّ وعرّفه. و من الجدير هنا؛ أن ننظر بوعى أكثر وأعمق - وإن كان إجماليّاً- إلىٰ بعض نقاط هذين الظلمين العظيمين الكبيرين.

٥. كيف ظُلم كتابُ الله تعالىٰ؟

(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [إبراهيم/١]

حين جاء هكذا كتاب، فقُدّم عليه كتاب زيدٍ و عمرو.. فإنّ في ذلک ظلم للكتاب السماء، أليس كذلک؟! وحين حصل هذا... (يضلّ اللهُ الظالمين ويفعل الله ما يشاء) (ابراهيم/٢٧) وحاصل وعي هذه العبارة هو لزوم تقديم القرآن المجيد على كلّ كتاب.. والظلم في هذا الصدد؛ هو [اعتبار]

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-12-19]

كتاب فلان وفلان ميزاناً يقاس القرآن وفْقه.. إن هذا لهو الظلم بعينه.. فيما العدل [اعتبار] القرآن مقياساً ومعياراً، تقاس آراء الناس وأفكارهم بالبناء عليه. فإن صار الحالُ حالَ الصورة الأولىٰ: (فما له من نور) (النور/٤٠) وأن تكرّست الصورة الثانية: (لنهدينّهم سبلَنا) (العنكبوت/٦٩).

ويمكن تلمّس هذه الحقيقة المؤكّدة في كلمات أهل بيت النور:: «مَن ابتغىٰ العلم في غيره؛ أضلّه الله» [تفسير العياشي، ج ١، ص ٦]؛ «مَن التَمَسَ الهدىٰ في غيره؛ أضلّه الله» [نفس المصدر].

وهكذا يمكن إدراك تفسير واضح لهذا الكلام الإلهي والمنطقي القائل: (يضلّ من يشاء و يهدي مَن يشاء) [النحل/٩٣؛ فاطر/٨].

والأسف كلّ الأسف علىٰ أنّ استدبار بيان العترة الطاهرة للكتاب الذي لا يمسّه إلّا المطهّرون، قد انتج الكثير من حالات الفهم الخاطئ والمنحرف للقرآن العظيم.

٦. وأمّا الظلم بتالي الكتاب [الإمام المعصوم] وهو الوجه الآخر لظلم الكتاب؛ تُرىٰ من يجهل شأن الإمام أمير المؤمنين٧ و مقامه السّامي والأسمى في حفظ و ترويج و تبيين وتفسير القرآن المجيد.. ومَن لا يعرف دوره الأوّل في حلّ هذا الإمام الهمام المعضلات و الردّ علىٰ الشّبهات بصدده؟ إنّ كثرة وتواتر الشواهد المتوفّرة في كتب الفريقين تُغنينا عن الحاجة إلىٰ تفصيل هذه المقولة... ولكن السّؤال الأصل هنا هو: كيف تمّ التعامل مع مبيّن كتاب؟ وأهمّيّة هذا السؤال تدرك في وقت نصل فيه إلىٰ قوله عزّوجلّ: (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) [البقرة/٢٦].

الإجابة المجملة قد وردت في آخر هذه الآية؛

وإيضاح ذلک، أنّ إضلال الله، بمعنىٰ خذلانه، إنما يرد بعد بيان المحكمات العقليّة و تفتّح العقل.. حين يكفر الانسان – بمعنى الكفران للنّعم– بعوامل وأسباب التوفيق الربّانيّ باختياره و علمه.. فيسلب الله تعالىٰ بعدله منه التوفيق، ثمّ يكله إلىٰ نفسه بعد إتمام الحجّة الدافعة عليه. و هذا الإضلال – بالمعنىٰ المذكور – ردّة فعلٍ علىٰ الاختيار السيّئ للإنسان، أو ما أطلق عليه القرآن الحكيم: «الفسق».. ونعود مرّة أخرىٰ إلىٰ الآيات:

١. لتقريب المعنىٰ يمكن أن يمثّل بمعلّم شفيق دقيق ناضج يلقي دروسه طيلة العام الدارسي إلىٰ تلاميذه .. و من بينهم طلّاب ذوو سلوک و حرص مطلوب.. وطلّاب آخرون ينكاسون عن الدراسة ويؤذون معلّمهم.. الذي يواصل جهده الطيّب تجاه جميع طلّابه.. فإذا ما واجد طالبان من الفريق الأول و الثاني مشكلة في يوم الامتحان، كأن نسيا بعض المطالب.. فلاريب أن المعلم سيُساعد الطالب الأول بداعي حرصه و سلوكه الطيّب وأدبه الرفيع.. بما لا يساعد الطّالب الثاني، و في الثقافة الدينية تسمّىٰ هذه المساعدة توفيقاً وهداية.. كما يسمّىٰ عدم المساعدة خذلاناً وإضلالاً. والمهمّ هو أنّ أيّاً من هذين الموقفين الصّادرين عن الله تعالىٰ لا يُعدُّ ظلماً.. إذ الموقف الأول فضلٌ والثاني عدل.. وهذا ما تأسّست عليه مفاهيم بعض الأدعية التي يطلب فيها فى الباري سبحانه المعاملة بالفضل لا بالعدل..

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-12-19]

(فلمّا زاغوا أزاغَ اللهُ قلوبَهم) [الصفّ/٥].

(اولئک الّذين أُبسلوا بما كسبوا) [الأنعام/٧٠].

فإذا ما اختار الإنسان الهداية و تقبّلها، فإنّه تعالىٰ سيزيده هدًى (والذين اهتدوْا زادهم هدًى) [محمد/١٧]

٧. من أهمّ عوامل الفسق؛ الظلم للآخرين؛ يقول سماحته:

«فعل الله بدءًا؛ هو الهداية.. ولكن حين تتنزّل هذه الهداية فتظلم.. فإن جزاء الظالم إذ ذاك؛ الإضلال.. وكل ظلم يتناسب وجزاؤه، لأنّ النظام نظام حكمة.. ونضع الموازين القسط.. والسماء رفعها ووضع الميزان. و خاصيّة الظّلم هي أنّ الشّهيد الذي يقتل في طريق النبيّ، فإن ذنوبه كلّها تُغسل لدىٰ أول قطرة تسقط فى دمه؛ إلا ذنباً واحداً؛ وهو ظلم الناس و التجاوز علىٰ حقوقهم..»

حين يكون الظلم عظيماً إذا ما توجّه إلىٰ شيءٍ من مال الناس، فإنّ دم الشهيد حتّىٰ – مع كلّ جلاله– لن يُغسل، فكيف بحال الظلم المتوجّه إلىٰ القرآن العظيم؟ حينذاك؛ سيُضاعف هذا الظلم الكبير، إذا ما تسمّىٰ باسم تفسير القرآن – أي لدىٰ التبرير لهذا الظلم بظواهر بعض ألفاظ كتاب الله. و لم يصب هذا الظلم المضاعف طيلة السنين والقرون أهل بيت النبيّ عليهم الصلاة والسلام فحسب، وإنما طال جميع أجيال الأمّة المسلمة؛ بل وجميع البشريّة.. هذا الظلم الذي ينتهي إلىٰ محو كتاب الله تعالىٰ – على حدِّ عبارة الإمام السجّاد٧، إذ قال في دعائه الشريف في دعائه في يوم عرفة مخاطباً ربّه الجليل: «و لا تجعلني للظالمين ظهيراً ولا لهم علىٰ محوِ كتابک يداً ونصيراً» [الصحيفة السجّاديّة/ الدعاء٤٧]

٨. الناس علىٰ موعد ليشهدوا يوماً هروب غيلان الظّلم تحت مظلّة طائر العدالة الموعود.. الذي سيزيح أشكال الظلم بنور العدل، لا سيّما ذلک الظّلم المتوجّه إلىٰ أعظم عباد الله تعالىٰ.. النبيّ وآل بيته الطاهرين:..

و كذا في ذلک اليوم سينصب الإمام الموعود – عجّل الله تعالىٰ ظهوره المبارک – خياماً يعلّم فيها القرآن (الإرشاد، ج ٢، ص ٣٨٦).

و ذلک الإمام الفذّ سيُعيد الناس إلىٰ (الهوىٰ الإلهي) كما مالوا من قبل إلىٰ هوىٰ النفس

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-12-19]

[نهج البلاغة، الخطبة ١٣٨] كما كان الرسول الخاتم منهلٰكاً في تعليم كتاب الله [الجمعة/٢] و تبيينه [النحل/٤٤] ويفتح للبشرية صفحة جديدةٌ من كتاب الحياة.. لم تكن قد رأتها من قبل، ولم تكن الآذان قد سمعت بمثل محتواها من قبل.. و نحن مدّونا نواظرنا إلىٰ فجره المشرق.. أليس الصبح بقريب؟

١. قال سيد الأوصياء في وصفه فعل خاتم الاوصياء٨: «يطعف الهوىٰ على الهدىٰ؛ إذا عطفوا الهدىٰ على الهوىٰ، ويطعفُ الرأىَ على القرآن؛ إذا عطفوا القرآن على الرأي»...

٢. لا شكّ في خاتم الأنبياء صلوات الله عليه وآله فيما يتعلّق بتبيين القرآن يواجه أناساً لم يكن لهم أدنىٰ علم بكتاب الله. ولكن خاتم الأوصياء٧ سيواجه أفراداً وجماعات قد نحتوا في أذهانهم صوراً خاطئة عن حقائق القرآن.. ولكنّ أصل المهمّتين واحد، وذلك أن الظهور امتداد للبعثة و محقّق لأهدافها و غاياتها.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-12-19]